محنته

يقول الله تعالى :

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١) .

ولقد أخذ بعض المؤرخين يعدُّ أعداء الأنبياء من المجرمين ، ومن الممكن أن يعدَّ الإنسان أعداء أولياء الله من المجرمين أيضاً ؛ وذلك أن كثيراً من الناس قد ملأ الشر قلوبهم ، إلى درجة أنهم لا يتحملون رؤية الأتقياء الأولياء .

ومع أن الله سبحانه يقول فى حديث قدسى :

« مَنْ عَادَى لِى وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ » .

فإن الكثيرين يعادون أولياء الله لما فى قلوبهم من شر ، ولما فى نفوسهم من حب الإيذاء .

ولقد كان لذى النون أعداء .

إنهم أعداء التسامى فى العلم ، وفى الخُلق ، وفى التصوف .

وتكتَّل هؤلاء الأعداء . . يقول صاحب « الكواكب الدرية » عن ذى النون :

« ولمَّا تكلَّم بعلوم لدُنِّيَّة لا علم لأهل مصر بها ، وَشَوا به إلى خليفة بغداد ، فحُمل إليه فى جماعة ، مغلولاً مقيَّداً ، فقُدِّم للقتل ، فكلَّم الخليفة ، فأعجبه ، فأطلقه ورفقته ، وقال :

« إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم » .

---

(١) سورة الفرقان : ٣١ .

ولكن أهل مصر قوم طيبون، فبمجرد أن رأوا ذا النون ـ وفى يده الغُلُّ وفى رجله القيد ـ أخذوا يبكون، وإذا بذى النون يعلن :

« **هذا من مواهب الله ومن عطاياه،وكل فعاله عذب حسن طيب**».

ثم أخذ ينشد مخاطباً الله سبحانه بشعره :

لَكَ مِنْ قَلْبِى المكانُ المَصُونُ كُلُّ هَمٍّ فِيكَ يَهُونُ

لَكَ عَزْمٌ بِأنْ أكُونَ قَتِيلاً فِيكَ والصَّبْرُ عَنْكَ مَا لا يكونُ

ويقص ذو النون بعض أخبار من هذه المحنة فيقول :

« **لما حُملتُ من مصر فى الحديد إلى بغداد لقيتنى امرأةٌ زَمْنَةٌ ، فقالت** : إذا دخلت على المتوكل فلا تَهَبْهُ، ولا تَرَ أنه فوقك ، ولا تحتجَّ لنفسك مُحقاً كنت أو متهماً ، لأنك إن هبته سلَّطه الله عليك ، وإن حاججت عن نفسك لم يزدك ذلك إلا وبالاً ، لأنك بَاهَتَّ الله فيما يعلمه ، وإن كنت بريئاً فادعُ الله تعالى أن ينتصر لك ، ولا تنتصر لنفسك فَيَكِلَكَ إليها .

فقلت لهَا : سمعاً وطاعة .

فلما دخلتُ على المتوكل سلَّمتُ بالخلافة .

فقال لى : ما تقول فيما قيل فيك من الكفر والزندقة ؟

.. فسكتُّ .

فقال وزيره : هو حَقيقٌ عندى بما قيل فيه .

ثم قال لى : لِمَ لا تتكلم ؟

فقلت :

يا أميرَ المؤمنين ، إن قلت لا كذَبتُ المسلمين . وإن قلت نعم كذبتُ على نفسى بشىء لا يعلمه الله تعالى منى : فافعل أنت ما ترى فإنى غير منتصر لنفسى .

فقال المتوكل : هو رجل برىء مما قيل فيه .

فخرجت إلى العجوز ، فقلت لها: جزاكِ الله عنى خيراً.. فعلتُ ما أمرتنى به ، فمن أين لك هذا ؟

فقالت :

«من حيث خاطب به الهدهد سليمان عليه السلام» . . اهـ .

تريد بذلك ما قال الهدهد :

﴿ **وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ** ﴾ (١) أى : عن مشاهدة .

وتريد قول الهدهد :

﴿ **أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ** ﴾ (٢) » .

* * *

بيد أن قصة هذه المحنة انتهت إلى كثير من الخير ، ولقد فصَّلها بعض من كتب عن ذى النون من حيث خاتمتها ، وذكر البعض ما لم يذكره الآخرون ، ومن أجل ذلك نحب أن نذكر بعض ما ذكروه :

روى أبو نعيم فى «الحلية» عن إبراهيم بن يحيى اليزيدى قال :

لما حُمل ذو النون إلى جعفر المتوكل أنزله فى بعض الدور وأوصى به زرافة .

(١ ، ٢) سورة النمل : ٢٢ .

وقال : إذا أنا رجعت غداً من ركوبى فأخرجْ إلىَّ هذا الرجل .
فقال له زرافة : إن أمير المؤمنين أوصانى بك .
فلما رجع من الغد، قال له :
انظر بأن تستقبل أمير المؤمنين بالسلام .
فلما خرج إليه قال له : سلِّمْ على أمير المؤمنين .
فقال ذو النون :
« **ليس هكذا جاء الخبر .. إنما جاء فى الخبر أن الراكب يسلِّم على الراجل** » .
فتبسَّم أمير المؤمنين وبدأه بالسلام، فلما نزل قال له :
ـ أنت زاهد أهل مصر ؟
قال :
« **كذا يقولون** ».
فقال له زرافة : إن أمير المؤمنين يحب أن يسمع من كلام الزهاد، فأطرق مليّاً ثم قال :
ـ « **يا أمير المؤمنين إن لله عباداً عبدوه بخالص من السرِّ ، فشرَّفهم بخالص من شكره ، فهم الذين تمر صحفهم مع الملائكة فَرْغَى ، حتى إذا صارت إليه ملأها لهم من سرٍ ما أسرُّوا إليه .**
أبدانهم دنيوية ، وقلوبهم سماوية ، قد احتوت قلوبهم من المعرفة حتى كأنهم يعبدونه مع الملائكة بين تلك الفُرَج وأطباق السموات ، لم يخبُّوا فى ربيع الباطل، ولم يرتعوا فى مصيف الآثام ، ونزَّهوا الله أن

يراهم يتواثبون على حبائل المكر : هيبة منهم له ، وإجلالاً أن يراهم يبيعون أخلاقهم بشيء لا يدوم ، وبكثرة من العيش مزهودة، فأولئك الذين أجلسهم على كراسى أهل المعرفة بالأدواء، والنظر فى منابت الداء، فقال لهم:

إنْ أتاكم عليلٌ منْ فقْدى فدَاوُود ، أو مريضٌ من ذِكْرى فادنود ، أو ناسٍ لنعمتى فذكّرود، أو مبارز لى بالمعاصى فنابذود، أو محب لى فواصلود. يا أوليائى، فيكم عاتبت، ولكم خاطبت، ومنكم الوفاء طلبت ، ولا أحب استخدام الجبَّارين ، ولا تولِّى المتكبرين، ولا مصافاة المترفين..

يا أوليائى وأحبَّائى، جزائى لكم أفضل الجزاء، وإعطائى لكم أفضل العطاء، وبذلى لكم أفضل البذل، وفضلى عليكم أوفر الفضل، ومعاملتى لكم أوفى المعاملة، ومطالبتى لكم أشد المطالبة . أنا مقدِّس القلوب . وأنا علاَّم الغيوب، وأنا أعلم بمجال الفكر ووساوس الصدور، من أرادكم بسوء قصمته، ومن عاداكم أهلكته».

ثم قال ذو النون :

« وَرَدَتْ قلوبهم على بحر محبته ، فاغترفت منه ريّاً من الشراب .. فسهل عليها كل عارض عرض لها دون لقاء المحبوب ، قد سكنت لهم النفوس ، ورضوا بالفقر والبؤس ، واطمأنت جوارحهم على الدُّؤوب على طاعة الله بالحركات ، وظعنت أنفسهم عن المطاعم والشهوات ، فتوالوا بالفكرة ، واعتقدوا الصبر ، وأخذوا بالرضا . ولهوا عن الدنيا ، وأقرُّوا بالعبودية للملك الديَّان ، ورضوا به دون كل قريب وحبيب ،

فخشعوا لهيبته ، وأقروا له بالتقصير ، وأذعنوا له بالطاعة ولم يبالوا بالقلّة .

إذا دخلوا فأهل تُقًى ، وإذا عوملوا فإخوان حياء ، وإذا تكلموا فحكماء ، وإذا سئلوا فعلماء ، وإذا جُهل عليهم فحُلماء ، فلو رأيتهم لقلت : عَذَارَى فى الخدور ، قد تحركت لهم المحبة فى الصدور ، بحسن تلك الصور التى قد علاها النور ، وإذا كشفت عن القلوب رأيت قلوباً لينة منكسرة وبالذكر نائرة وبمحادثة المحبوب عامرة ، لا يشغلون قلوبهم بغيره ، ولا يميلون إلى ما دونه ، قد ملأت محبة الله صدورهم فليس يجدون لقرب المخلوقين شهوة ، ولا بغير الأنس بمحادثة الله لذة ، إخوان صدق ، وأصحاب حياء ووقار ، وتُقًى وَوَرَع ، وإيمان ومعرفة ودين ، فاستقبلوا الوفاء بالصبر على لزوم الحق ، واستعانوا بالحق على الباطل ، فأوضح لهم الحُجَّة ، ودلَّهم على المَحَجَّة ، فرفضوا طريق المهالك ، وسلكوا خير المسالك ، أولئك هم الأوتاد الذين لهم تُوهب المواهب ، وبهم تُفتح الأبواب ، وبهم يُنشأ السحاب ، وبهم يُدفع العقاب والعذاب ، وبهم يُسقى العباد والبلاد .. فرحمة الله علينا وعليهم » .

لقد سبق أن ذكرنا أن المتوكل بعد أن سمع كلام ذى النون قال :

« إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم » .

ويبدو أن المتوكل أخذ ـ بعد ذلك ـ يستدعى ذا النون ويسمع منه ، فصاحب «السر المكنون» يذكر قصة طويلة يطلب فيها المتوكل من ذى

النون أن يحدِّثه بأعجب ما رأى فى سياحاته، ويحدِّثه ذو النون، ولعل من آثار ذى النون هذا السلوك الذى اتخذه المتوكل بالنسبة لأهل السُّنَّة من إيقاف التنكيل بهم، ومن اضطهادهم.

ومِمَّا لا شك فيه أن ذا النون أثَّر فى نفس المتوكل من هذا الجانب، لقد أثر فيها إلى درجة أن المتوكل كان إذا ذُكر عنده أهل الورع يبكى ويقول:

« إذَا ذُكر أهل الورع فَحَيَّهَلاَ بذى النون ».

إن المتوكل فى صلته الوثيقة بالمعتزلة لم ير فيهم هذا اللون من العبودية لله، والصلة به، ومن الورع والزهد.

وما كان المعتزلة - فى يوم من الأيام - يتجهون هذا الاتجاه، أو يتحدثون بهذا الأسلوب المؤثر، أو تبدو شخصيتهم فى هذه الصورة التى ترى فيها قلوباً امتلأت بحب الله سبحانه. كلاَّ، وإنما كانت هذه الصورة كثيرة فى أهل السنَّة.

ومهما يكن من شىء؛ فإنه قد آن الأوان لرجوع ذى النون إلى مصر معزَّزاً مكرَّماً.

ومر ذو النون بحاجب المتوكل، هذا الرجل الذى عرف ذا النون عن قرب، فعرف عبادته وذكره وتسبيحه، ونحب أن نذكر هنا قصة عن وداعه لذى النون، يقول:

دخل علىَّ ذو النون ليودِّعنى، فقلت له:

اكتبْ لى دعوة، ففعل، فقرَّبت إليه جام لوزينج، فقلت له :
كُلْ من هذا فإنه ينفع الدماغ، وينفع العقل .
فقال :

« **العقل ينفعه غير هذا** ».

قلت : ما ينفعه ؟

قال :

« **اتّباع أمر الله والانتهاء عن نهيه ، أما علمت أن النبى ﷺ قال: « إنَّما العَاقِلُ مَنْ عَقَلَ عَنِ الله أَمْرَهُ ونَهْيَهُ** » .

فقلت له : أكرمنى بأكله .

قال :

« **أريد ألذَّ من هذا** ».

قلت : وأى شىء تريد .

فقال :

« **هذا لمن لا يعرف الحلوى ، ولا يعرف أكلها ، وإن أهل معرفة الله يتخذون خلاف هذا اللوزينج** ».

قلت : لا أظن أحداً فى الدنيا يُحسن أن يتخذ أجود من هذا، فإن هذا من مطبخ أمير المؤمنين المتوكل على الله .

قال :

« **خُذْ لبابَ مكنون محض طعام المعرفة ، واعجنْهُ بماء الاجتهاد ..وطابقْ صفو الوداد ، ثم اخبزْ لوزينج العبّاد بحرِّ نيرانِ نَفَسِ الزهّاد ، وأَوْقِدْهُ بحطبِ الأسى ..** » .

وهكذا أخذ ذو النون يحدِّثه بهذا الأسلوب المجازى عن مأكول أهل الله، حتى قال له :

« **ثم كُلْ بأنامل التفويض ، فى ولائم المناجاة ، بوجدان خواطر القلوب، فعند ذلك تفريج كرب القلوب ، ومحلّ سرور محبّ الملك المحبوب** ».

ثم ودَّعنى وخرج، رحمة الله عليه .

عاد ذو النون لمصر معزَّزاً مكرَّماً ، ولعل من مقادير الله سبحانه أن محنة ذى النون إنما كانت رسالة يؤديها إلى المتوكل الذى بدأ حياته بمعاداة أهل السُّنَّة، فلما أدى الرسالة ونصح للمتوكل انتهت مهمته فى بغداد، وعاد إلى مصر التى كان يهفو فؤاده إليها .

ولعل من تصرفات المقادير أن تكون هذه المحنة من الأسباب التى تجعل حياة ذى النون حياة هادئة ، فإنه وقد عاد معززاً مكرماً من عند الخليفة احترمه الوالى واحترمه غير الوالى ممن يسيرون فى اتجاهات الخليفة، يسخطون إذا سخط، ويرضون إذا رضى .

أكانت محنة ؟ . . أم كانت ـ كما عبَّر عنها ذو النون بقوله ـ :

« **هذا مِنْ مِنَح الله وعطاياه** ؟ » .

* * *